الإرشاد الأسري
المحاضرة الرابعة

القسم الثالث

المقابلات الإرشادية والعلاجية الأسرية

تمهيد فى تطور التعامل مع الأسرة :

يعرف كل المشتغلين بالمشكلات النفسية والاجتماعية من اخصائيين اجتماعيين ونفسيين ومن مرشدين نفسيين واطباء نفسيين أهمية الأسرة فى نشأة وعلاج هذه المشكلات . وطالما استعانوا بالأسرة على نحو أو آخر فى عملهم ، ولكن هذه الاستفادة قد تطورت ومرت بمراحل يمكن تمييزها كالآتى :

فى المرحلة الأولى كان الاخصائيون النفسيون والمرشدون يتصلون بالأسرة كى يحصلوا على معلومات عن عضو الأسرة المريض . فالأسرة فى هذه المرحلة ليست أكثر من مصدر للمعلومات التى لم يستطع المرشد أو المعالج أن يحصل عليها من الحالة نفسها .

وفى المرحلة الثانية ، ومع بروز دور العوامل البيئة فى اضطراب الأفراد أو فى صحتهم النفسية ، أصبح المرشدون والمعالجون يتطلعون إلى فهم ديناميات الأسرة كجزء من فهم البيئة المحيطة بالمريض . وكان هذا منظوراً هاماً فى تشخيص وعلاج الاضطرابات ؛ لأن فهم ديناميات الأسرة للاستفادة بها فى إرشاد وعلاج الفرد كان خطوة فى الاتجاه الصحيح ، حيث كان إغفال الوسط الذى يعيش فيه المريض يجعل التشخيص ناقصاً .

أما فى المرحلة الثالثة والتى بدأت مع تبلور علاج الأسرة ، فقد تطورت النظرة إلى الأسرة ، فبعد أن كانت مصدراً للمعلومات فى المرحلة الأولى ، وبعد أن كانت عاملاً مؤثراً على المريض فى المرحلة الثانية تحولت النظرة فى المرحلة الثالثة من الفرد إلى الأسرة ، بمعنى أن مركز الاهتمام أو بؤرته انتقل إلى الأسرة التى اعتبرت أنها الموضوع المريض ، وما عضو الأسرة الذى حدد كمريض إلا إفصاح عن مرض الأسرة واضطرابها . إذن فالمريض هو الأسرة ذاتها وليس العضو الذى حدد كمريض ، وبالتالى فإن الجهد الإرشادى والعلاجى ينبغى أن ينصب على الأسرة ، وعلى تصحيح نمط العلاقات فيها ، وإذا ما نجح المرشد أو المعالج فى ذلك فإن الأسرة ستعيش مناخ تفاعلات صحية وسوف يتحسن « المريض » فى سياق تحسن الأسرة .

أ - مرحلة الاتصالات الأولية والجوانب الإدارية والإجرائية :

إن مرحلة الاتصالات الاولية تبدأ مع المرشد أو المعالج من أول اتصال بينه وبين الأسرة وتنتهي عندما يدخل المعالج والأسرة فى علاقة عاملة Working Relationship ، أى فى علاقة فاعلة ومتماسكة بالقدر الذى يسمح بإمكانية التغيير إلى أفضل. ويكرر الباحثون والممارسون على السواء من العاملين فى مجال إرشاد وعلاج الأسرة التأكيد على أهمية الاتصالات الاولية بين الأسرة والمعالج أو المرشد فى ترك انطباع أولى عند كل طرف عن الطرف الآخر، وإما أن يكون هذا الانطباع إيجابياً يصب فى صالح العملية الإرشادية أو العلاجية، وإما أن يكون سلبيا لا يخدم هدف المعالج من تحسين أوضاع الأسرة، وتشهد « سو والروند -سكنر » Sue Walrond-Skinner أن نجاح المرشد النفسى أو المعالج النفسى فى إنهاء هذه المرحلة الأولية يحدد بدرجة كبيرة نتائج العلاج كله (walrand - Skinner , S , 1981 , 35).

وعلى الرغم من أن عملية انخراط المرشد أو المعالج مع الأسرة تختلف من معالج إلى آخر ومن أسرة إلى أسرة ، بل ومع المعالج الواحد حسب ظروف كل أسرة، إلا أن هناك جوانب عامة يحرص عليها المعالج لتبدأ عملية الإرشاد أو العلاج البداية الصحيحة. قد يأتى الاتصال الأول بين الأسرة والمرشد إما بصورة مباشرة عن طريق أحد أفراد الأسرة أو عن طريق طرف ثالث كأن يكون جهة التحويل التى حولت الأسرة إلى مرشد أو معالج أسرى . فكثيراً ما تبدأ الأسرة أو العضو الذى حددته الأسرة كمريض استشارة جهة طبية أو نفسية ، أو طب نفسية بمفرده ، ثم رأت هذه الجهة تحويل « المريض وأسرته » إلى مرشد أو معالج من أصحاب التوجه الأسرى . وفى هذه الحال على المرشد أن يتصل بجهة التحويل ويستفسر عن ظروف ودواعى الإحالة إليه ، فيما لو رأى أن تقرير الإحالة ينقصه بعض المعلومات أو يحتاج إلى المزيد من الاستيضاح. وعلى المرشد أيضا أن يعرف من الجهة التى قامت بالتحويل معلومات عن الأسرة ، ومدى تعاونها ، وانطباعاتها عندما علمت بأمر التحويل إلى المرشد الأسرى ، وكل ما يمكن أن يفيد المرشد فى فهم الأسرة وظروفها وإمكانياتها . وعلى المرشد الأسرى أن يعرف أيضاً هل التحويل إلى الإرشاد الأسرى كان برغبة الأسرة أم بنصيحة من جهة التحويل .

وهناك قسم كبير جداً من الممارسة يتم باتصال الفرد الذى يحتاج إلى المشورة أو المساعدة بالمرشد مباشرة ، كما يحدث فى المؤسسات كالمدارس والمصانع أو أى تجمعات

كالإدارات الحكومية . وفى هذه الحالات يتوقع الفرد أن تقدم له خدمة إرشادية أو علاجية بمفرده ، ولكن المرشد ذو التوجه الأسرى يمكن أن يقنعه بضرورة الاتصال بالأسرة وإرشاده أو علاجه ضمن إرشاد الأسرة وعلاجها . ويعد عملية الإقناع على المرشد أن يتصل مباشرة بالأسرة .

ويتصل المرشد بالأسرة هاتفيًا أو عن طريق كتابة رسالة تحريرية يدعوهم إلى اللقاء به . وفى بعض المجتمعات تجرى الترتيبات اللازمة ليزور المرشد الأسرى الأسرة فى منزلها حيث تعقد المقابلة الأولى . ويتحمس لهذا الإجراء بعض المنظرين أو الممارسين، وحجتهم فى ذلك أن ذهاب المرشد إلى الأسرة فى منزلها من شأنه أن يكسب الألفة معهم بسرعة ، وأن يهون عليهم مرحلة القلق التى يشعرون بها عندما يعرفون أنهم بصدد الدخول فى عملية إرشادية أو علاجية ، وحتى يستطيع المرشد أن يقف على بعض المعلومات أو الإشارات والعلامات الدالة على ديناميات التفاعل فى الأسرة ، والتى ربما لا تظهر بنفس الوضوح إذا ما قدمت الأسرة إلى المرشد . وعلى أية حال فإن المرشد يتصرف فى حدود معايير الإقامة وظروف المجتمع الذى يعيش فيه ، وكذلك ظروفه الشخصية والجهة التى يعمل بها وظروف الأسرة أيضًا . وكل الاحتمالات قائمة ومفتوحة ، وعلى المرشد أن يتخير أحسن الظروف والملابسات التى تجعل من اللقاء الأول لقاء ناجحًا تحرص الأسرة بعده على مداومة حضور الجلسات والانخراط الجدى فى العملية الإرشادية .

وإذا كتب المرشد رسالة إلى الأسرة فعليه أن يذكر فيها بصراحة أنه يريد أن يلتقى بأفراد الأسرة كلهم لا ليجمع منهم معلومات عن « المريض » أو ليفهم مناخ العلاقات فى الأسرة ، ولكن لأن هناك خطأ فى تفاعل الأسرة معًا ، وأن انحراف المريض وهنه جزء من علة الأسرة ذاتها ، وبالتالى فالأسرة مدعوة كمسترشدة أو متعالجة ، وأكثر من ذلك فإن الدعوة ينبغى أن توجه إلى كل فرد مؤثر أو له دور فى حياة الأسرة حتى ولو لم يكن مقيمًا فى المنزل مع الأسرة من الأحفاد أو الأعمام أو الأخوال ، حيث إن العملية الإرشادية تتناول طبيعة العلاقات ومراكز القوى فى الأسرة .

وينبغى على المرشد أن يتأكد من جدية التحويل (فى حال الأسر المحولة من جهة معينة) ، وأن يتأكد من الفرد الذى جاء يطلب المشورة ووجد أن حالته تستدعى رؤيته وتشخيصه وإرشاده من خلال أسرته . وكثيرًا ما يرحب الفرد بهذا التوجه حيث لا يبدو أنه فقط « السيئ » أو « المنحرف » أو « المريض » أو سبب متاعب الأسرة ، بل إن

١٧٥

الأمر موزع على الجميع وما هو إلا ضحية الأسرة وليست الأسرة ضحيته . وعلى المرشد أن يستفيد من ترحيب المريض وأن يتخذه مدخلاً للدخول إلى الأسرة وفهمها فهماً جيداً وذلك مقابل أنه برّأه من تهمة الإساءة إلى الأسرة ، مما يصنع بينهما تحالفاً سنشير إليه فيما بعد عند الحديث عن مرحلة التفاعل .

وعلى المرشد بعد أن يكتب للأسرة أو يهاتفها ويتلقى موافقتها على الاشتراك في الإرشاد أو العلاج أن يحدد مكان عقد الجلسة الأولى أو اللقاء الأول بالأسرة ، وقد ذكرنا أن البعض يفضل أن يذهب المرشد إلى منزل الأسرة ليضفي جواً من الاجتماعية والاتناس على اللقاءات بدلاً من جو الخوف والقلق ، خاصة الأسر المترددة أو الخائفة أو حتى المقاومة . ولعل النقطة الأخيرة هذه والخاصة بمقاومة الأسرة لهذا النوع من الإرشاد والعلاج هي التي تدعو البعض إلى القول بعدم ذهاب المرشد إلى منزل الأسرة بحجة التغلب على ترددها ومقاومتها ؛ لأنه ليس من المفيد أن نحرج الأسرة «ونضطرها» إلى الموافقة تحت ضغط الزيارة على الاشتراك في الإرشاد . بل المطلوب أن تأتي الأسرة إلى المعالج في مكان عمله ؛ لأن في ذلك دليل على رغبة الأسرة النابعة من قناعتها بالمشاركة في العملية الإرشادية ، وتكون قد تأكدت من رغبتها في المشاركة الطوعية مما يطمئن المرشد على تجاوبها معه في العمل .

وأيًا كان المكان الذي ستعقد فيه الجلسة الإرشادية الأولى فإن على المرشد أن يكون قد حدد من الذي سيحضر المقابلة ، ولا يصح في هذا الصدد أن يسأل الأسرة ، عمن سيحضر ، فهو الذي يحدد - بعد معرفته لأفراد الأسرة النووية ، ولأفراد الأسرة الممتدة ولأفراد أسرتي الأصل - من سيحضر ، لأن اللقاء ينبغي أن يضم بجانب أفراد الأسرة المقيمين معها كل من يمكن أن يكون له علاقة باتخاذ القرار في الأسرة . كما ينبغي أن يكون لدى المرشد قبل المقابلة الأولى فكرة عامة عن مشكلة الأسرة معتمداً أيضاً على المعلومات التي استقاها من تقرير الإحالة أو من جهة الإحالة أو من فرد الأسرة الذي جاءه يطلب المعونة أو من أي مصادر أخرى . وعلى المرشد أن يكون يقظاً ومركزاً في اتصالاته مبدياً الجدية والتعاطف ، وباختصار عليه أن يكون مسيطراً على الموقف في هذه المرحلة حتى تنتقل هذه الروح إلى الأسرة وتستمر قوة الدفع طوال العملية الإرشادية.

* * *

ب - مرحلة الالتحاق والارتباط بالنسق الأسرى ، (المقابلة الأولى)

بعد أن يحدد المرشد موعد ومكان المقابلة مع الأسرة ، عليه أن يعد نفسه لهذه المقابلة الأولى التى تكتسب أهمية خاصة كما ذكرنا وتحتل موقعاً فريداً ومتميزاً فى العملية الإرشادية أو العلاجية حيث يترتب على نتائجها أمور كثيرة بالنسبة للأسرة وللمعالج معاً . وأول ما يقابله المرشد عند لقاء الأسرة ، هو ذلك التوتر أو القلق الذى يعترى الأسرة والذى يمكن أن يكون متوقعاً ومفهوماً ، لأن الأسرة لأول مرة تعامل «كمريض» . وحضور الأسرة يعنى من ناحية ما أنهم يقرون « بمرضهم » وبحاجتهم إلى الإرشاد أو العلاج ، وإذا لم يكونوا مقتنعين تماما بذلك ، فإنهم حضروا بروح المقاومة والتحدى لدعوى المرشد . وفى كل هذه الحالات يحتاج المرشد إلى أن يمتص جو القلق والتوتر وأن يحاول إحلال روح الترحيب وأن يفتتحهم بالتعاون مع شخص عرفته الظروف إلى الأسرة تعرفا حميما ووثيقا ، وأن الأسرة لن تخسر من هذه العلاقة .

وهنا يجب أن ننبه المرشد بألا يغتر أو ينخدع عندما يسمع بعض عبارات التعاون والترحيب بالعمل معه ، وأنهم يقدرون سلفاً مجهوده ، فإن كثيرا من الأسر - كما يوضح الممارسون - تبدأ بهذا الحديث المشجع ، ولكن التعامل الفعلى معهم يكشف عن مقاومة عنيدة لإحداث أى تغيير فى مسلكهم وفى تفكيرهم ومشاعرهم ، ويصدرون فى هذا السلوك عن قناعات راسخة فى أعماقهم بأنهم « على ما يرام » وأن المشكلة هى مشكلة «العضو المريض» فى الأسرة ، وهم مستعدون للتعاون مع المعالج « وعمل كل شىء فى سبيله » لأنه « الأمل الأكبر والعزيز عليهم ». وقد تكون عملية المقاومة هذه على المستوى اللاشعورى ، فليس من السهل على الأم أن تدرك أو تعى أنها جزء كبير من مشكلة ابنها ومرضه . إضافة إلى أنه من الصعب التخلى عن السلوك الأعراضى للأسرة لأنه يؤدى وظيفة فى الحفاظ على اتزان الأسرة مما سنفصل فيه القول بعد ذلك .

وأول ما يفعله المرشد فى المقابلة الأولى بعد الترحيب بأفراد الأسرة هو أن يترك لهم حرية الجلوس ، بمعنى أن يترك كل فرد يجلس فى المكان الذى يريد ، حيث يكون المرشد قد أعد مقاعد بعدد من سيحضرون الجلسة ، وعليه أن يلاحظ من يجلس بجانب من ، لأنه قد يكتشف من البوهلة الأولى بعض التحالفات فى الأسرة ، وعليه أن يلاحظ أيضاً المكان الذى تركنه له الأسرة ، فإذا كان فى مكان لا يستطيع منه أن يرى فيه كل أفراد الأسرة فى نظرة واحدة فله أن يستنتج أن هذا التحديد ربما كان وراءه رغبة من الأسرة فى تقليص نفوذه أو تقليل مكانته ودوره ،وعليه فى هذه الحال أن يطلب من

أحد الأفراد أن يتبادل معه مكانه ، وهكذا فإنه يكون قد جابه قوة الأسرة وتحداها ، وعزز هيبته بطريقة غير لفظية ولكنها مؤثرة (Walrond - Skinner ,S. 1981 , 39) .

ومن البداية نؤكد أن هذه المرحلة فى العمل الإرشادى مرحلة تمهيد أو مرحلة اجتماعية أكثر منها مرحلة تشخيصية أو علاجية . وعلى المعالج أو المرشد أن يكتسب صداقة الأسرة وأن يحاول أن يدخل إلى النسق الأسرى ، وأن يتواءم مع الأسرة فى إيقاعها وأسلوبها وبنائها وخصائصها اللغوية والحركية ، ولكن بدون مبالغة أو افتعال ، حتى لا ينقلب الموقف إلى مزحة أو فكاهة أو سوء فهم من جانب الأسرة ، فهذه المرحلة تشبه مرحلة بناء الألفة rapport فى الإرشاد النفسى التقليدى أو غير الأسرى .

إذن فلا حديث فى أى مشكلة أو صعوبة تواجهها الأسرة فى المقابلة الأولى ، ولكن على المرشد أن يختزن فى عقله كل ما يصل إليه من معلومات أو إشارات عن الأسرة وأن يمهد فى نفسه للفروض العاملة التى يمكن أن تكون وراء مشكلة الأسرة . ولذلك فإن الجهد الإرشادى كله ينصرف فى هذه المرحلة إلى مواجهة الحاجات اللاشعورية عند أفراد الأسرة ، والتى قد تعمل على إعاقة عمل المرشد ، وصرفه عن مهمته الأصلية فى الكشف عن أصول الانحراف فى الأسرة ، وعدم استدراجه للتوجهات التى تتبناها الأسرة شعوريًا أو لاشعوريًا وأهمها حصر المرض فى العضو الذى حددوه كمريض .

ويحاول المرشد من البداية أن يقتحم النسق الأسرى وأن يلتحم به ، وأن يكون نسقا جديدا يضم الأسرة والمرشد ، ويكون لهذا النسق خصائصه ، ويكون له أهدافه وأساليبه المتفق عليها ، ولكن على المرشد ألا يندمج أو ينصهر مع النسق الأسرى الذى ربما يكون منصهرا أصلا ، ولكن عليه أن يحتفظ بشخصيته كنسق فرعى داخل النسق الجديد (الأسرة - المرشد) حتى يستطيع أن يقود عملية التغيير فى الأسرة ، ونجاح المرشد فى اقتحام النسق الأسرى وتكوين هذا النسق الجديد يعد انجازا كبيرا للمرشد ويبشر بنتائج طيبة للعملية الإرشادية ، ويعد بمآل Prognosis حسن .

ويفضل بعض المرشدين والمعالجين الأسريين بأن يقدموا فى الجلسة الأولى عرضًا أو وصفًا لرؤيتهم ونظرتهم الإرشادية والعلاجية بدون الدخول فى تفاصيل فنية بالطبع ، بينما يفضل مرشدون آخرون أن يوضحوا طبيعة العملية الإرشادية كما يرونها ليس بالكلام ولكن بصورة أكثر عملية وإجرائية مثل التعليق على بعض المواقف والتصرفات

أثناء مرحلة الاتصالات الأولية والإجراءات الإدارية التي سبقت المقابلة الأولى ، وتقديم تغذية مرتدة للأسرة من خلال هذه المواقف .

وأيًا كان الأسلوب الذي يتبعه المرشد ويفضله في العمل فقد قلنا أن المقابلة الأولى مقابلة اجتماعية في طبيعتها تهدف لبناء الألفة ، ولبناء بعض الفروض أو التساؤلات في ذهن المرشد والتي توجه عمله في الجلسات التالية . ومن المهم أن نعرف أن الأسرة جاءت ، وعلى المرشد أن يحتفظ بهذه الرغبة ، بل أن يترك في نفوس أفراد الأسرة ما يقنعهم بالاستمرار في المجيء واستكمال العملية الإرشادية ، ويعلمتهم في نفس الوقت أن غرض تجربة الإرشاد أو العلاج ستطلب التغيير ولكنه ليس التغيير المدمر في حجمه أو في سرعته ، وأن الأسرة عندما تقبل على الإرشاد بتفاؤل وثقة ورغبة أكيدة في التخلص من مشكلتها فإنها تساعد المرشد كثيراً في أن يصلا معًا (المرشد والأسرة) إلى نتائج طيبة .

وفي نهاية الجلسة الأولى يحدد المرشد للأسرة موعد المقابلة التالية ومكانها إذا كانت الجلسة الأولى عقدت في مكان خاص ، كما يحدد المرشد من سيحضر المقابلة من أفراد الأسرة ، ولا يجب عليه أن يسأل الأسرة عمن سيحضر ، فتحديد من يحضر المقابلات الإرشادية مسئولية المرشد وليست مسئولية الأسرة مهما كانت تعليقات الأسرة وتفسيراتها ورؤيتها للمشكلة .

ج - مرحلة تحديد المشكلة (المقابلة الثانية) :

وفي هذه المرحلة يبدأ العمل الإرشادي أو العلاجي الفعلي ، فعندما تنتهي المرحلة الأولى التي كانت تتسم بالطابع الاجتماعي وتهدف إلى إقامة الألفة بين المرشد والأسرة يبدأ المرشد ومنذ المقابلة الثانية مراحل العمل الفعلية مبتدئاً بتحديد المشكلة . ويرى كثير من الباحثين والممارسين أن خير مدخل لتحديد مشكلة الأسرة هي استعراض ودراسة وتحليل تاريخها . فتاريخ الأسرة إذن هو المدخل المناسب لمعرفة مشكلتها .

وأول ما سيواجهه المرشد في أولى جلسات العمل محاولات الأسرة لحصر المشكلة في العضو الذي حدوده كمريض ، وأنه إذا ما عولج هذا العضو فإن كل أمور الأسرة ستكون على ما يرام ، وكأن لسان حالهم يقول للمرشد : « لا تتعب نفسك في البحث فنحن أصحاب المشكلة وأدرى بها منك . إن المشكلة تنحصر في (س) فإذا ما استطعت مساعدته فقد ساعدتنا » ، وهذا هو التحدي الأول وربما الأكبر الذي يواجه المرشد الأسري في بداية عمله مع الأسرة ، ولذا تكون كل الأنظار والاهتمام موجهة

إلى عضو الأسرة الذى حدد كمريض ويتوقعون أن يتجه المرشد إليه بالأسئلة والاستفسارات . ولكى يبدد المرشد هذا الجو فى الجلسة عليه أن يبدأ الحديث مع أحد الأعضاء الآخرين فإن فى ذلك تخفيفا لجو القلق ويصرف أنظار الأسرة عن تشخيصهم للمشكلة.

ومع ذلك فليس من السهل القيام بتغيير جو المقابلة فعلى المرشد أن يأخذ قرارا خاصا بموضوع السؤال الأول الذى يبدأ به التعامل مع أفراد الأسرة ؟ ولمن يوجه هذا السؤال ؟ وكيفية صياغة السؤال ، وهى مشكلة تبدو بسيطة وسهلة ولكنها دقيقة ، ويترتب عليها سير التفاعل فى بقية المقابلة وربما المقابلات التالية . وفى هذا الصدد ينصح «هيلى» المرشد أن عليه بعد أن يكون قد أخذ فكرة لا بأس بها عن بناء القوة فى الأسرة وعن مواطن التأثير فيها خلال مراحل الاتصالات الأولية ومرحلة الانتحاق أن يتوجه بالسؤال الأول نحو عضو الأسرة الأقل انغماسا أو ارتباطا بالمشكلة حتى نبتعد قليلا عن جو المشكلة . كما يرى هيلى أن العضو ذا النفوذ فى الأسرة والذى لديه أكبر قدر من القوة والتأثير ، والذى يستطيع أن يأتى بالأسرة إلى الإرشاد الأسرى ينبغى أن يعامل بأكبر قدر من الاهتمام والاحترام . ويقول : إنه من غير الحكمة أن تبدأ الحديث مع العضو الذى حدد كمريض كما تتوقع الأسرة (Haley , 1987 , 22) .

وفى كل الحالات لا ينبغى أن يجبر المرشد عضوا على الحديث ، ويحدث هذا كثيرا مع العضو الذى حدد كمريض حيث يكون الجميع فى حالة يدفعونه فيها إلى الكلام ، باعتباره الشخص المعنى بالأمر وحده » ، فى الوقت الذى يكون فيه هذا العضو حائرا مشغولا ومحملا بهموم الأسرة ومشكلاتها ولا يعرف كيف يتكلم ، لأن لديه قدر كبير من الممارسة فى مقاومة قسر الراشدين . ويصرخ المرشدون الأسريون هذه القاعدة قائلين « لا تحاول أن تجبر عضوا آخرا على أن يتكلم » (Don,t attempt to force amute to speake) . ويقترح البعض أن يدفع هذا العضو إلى الكلام بصورة بها بعض التحايل والاستدراج مثل «نوبل» الذى يقترح أن يتوجه المرشد بالسؤال إلى أعضاء الأسرة الآخرين : ماذا تظن أن يقول (س) إذا ما أراد أن يتكلم عن الموضوع؟ ويمكن أن يوجه المرشد السؤال إلى الأعضاء الآخرين بشكل دائرى إذا كان ذلك ضروريا ، ويقول: « أنه فى معظم الحالات فإن العضو المحدد كمريض (س) أو الشخص الآخر سوف تتولد لديه الحاجة لأن يدافع عن نفسه أو ليوضح حقيقة مشاعره » . (Noble ,1991,336)

وتعود مرة أخرى إلى التساؤلات الأولية التى يبدأ بها المرشد العمل مع الأسرة وفى ذهنه عدة أمور : الأول أن يسدد جو القلق والترقب ، والثانى أن يعد « التهمة » اللاصقة بالعضو الذى حددته الأسرة كمريض والثالث أن يتحدث فى موضوعات أخرى غير مشكلة الأسرة بشرط ألا يجعل الأسرة تهرب من المشكلة . وقلنا أن الذكريات الأسرية مدخل مناسب لتحقيق هذه الأمور ، وتخلق لدى أفراد الأسرة مشاعر توحد وتعاطف مع بعضهم البعض وتوقظ ذكريات الآباء الشخصية أثناء طفولتهم ومراهقتهم مما يجعلهم أقرب إلى أن ينظروا إلى مشكلات وحاجات ومطالب أبنائهم فى ضوء تذكر مشكلاتهم وحاجاتهم ومطالبهم التى خبروها أثناء المراهقة .

ولكى يكون استرجاع الذكريات التاريخية الأسرية ممهدًا وقابلاً للإفادة منه نقترح « سو والروند - سكنر » أن يعمل المرشد على تنمية شجرة للعائلة مع أفراد الأسرة عن طريق تسجيل أسماء أفراد الأسرة النووية فى ورقة كبيرة مع التواريخ الهامة ، ثم إضافة أسرتى الأصل والأقارب خاصة المؤثرين أو ذوى العلاقة الوثيقة بالأسرة النووية ، ويتشكل من ذلك رسم تخطيطى يوضح الجدول الجيلى Genealgical Table أو خريطة الأسرة Genogram لأن هذا التحويل من الصورة اللفظية إلى الصورة المرئية الموضحة بالرسم للتاريخ الماضى للأسرة يعد طريقة مبتكرة لاستقطاب انتباه واهتمام الأبناء نحو مادة قد تكون جديدة تمامًا بالنسبة لهم ، والتى قد تصبح نقطة البدء ويمكن من خلالها تنمية حوار ثنائى وجدانى يقوم عبر الحدود الجيلية (الأبناء مع الآباء وربما الأجداد) . كما أن هذا الأسلوب تكون له فائدة كبيرة فى تمكين المعالج من الحصول على قدر كبير من المعلومات التى لها طابع تعاقبى يتضمن تسلسلاً تاريخيًا للأحداث والخبرات الأسرية (Walrond - Skinner , 1981 , 38) . وإذا ما بدأ فى إنشاء هذه الشجرة ابتداء من المقابلة الثانية فإنها تبقى مع أفراد الأسرة طوال فترة الإرشاد ويمكن أن يضيفوا إليها أية معلومات يتذكرونها أو يجدون لها قيمة . ولكن ينبغى أن نؤكد أن هذا الاستعراض التاريخى لأحداث وقائع سابقة ينطلق من الحاضر الذى تعيشه الأسرة مع المرشد ، وليس للبحث عن أسباب المشكلة « الحالية » فى « الوقائع الماضية » فى هذه المرحلة على الأقل فى العمل الإرشادى . فهذا الاستعراض مدخل يحقق الأمور التى سبق الإشارة إليها ولكنها لا يجب أن تكون مهربا من الحاضر إلى الماضى .

وترى « فرجينيا ساتير » أن على المرشد فى المراحل المبكرة فى الإرشاد ابتداء من

المقابلة الثانية أن يعطى الفرصة لكل عضو فى الأسرة ليعبر عن وجهة نظره فيما يتعلق بالمشكلة التى أتت بالأسرة إلى الإرشاد أو العلاج النفسى ، أو حسب تعبيرها للتحدث عن « الألم فى الأسرة » Pain in The Family (Satir, 1983)، ومن خلال هذه الأحاديث وتحليلها والمناقشات التى يمكن أن تدور حولها يستطيع المرشد أن يقيم الأنماط التى تستخدمها الأسرة فى تواصلها واتصالاتها مع بعضها البعض ، وأنماط تحالفاتها الداخلية ، والأدوار التى يقوم بها أفراد الأسرة بالفعل بصرف النظر عن الأدوار النمطية، فقد يختلف ما يحدث عما هو متوقع أو سائد . كما يحتاج المرشد أن يعرف كل ما يمكن معرفته عن النسق الأسرى والمكانة التى منحها إياه هذا النسق مع بداية عملية الإرشاد ، أو بمعنى آخر علاقة النسق الفرعى الذى يتكون من المرشد بالنسق الفرعى الذى يتكون من الأسرة فى ظل النسق الفوقى Supra system الجديد الذى سعى المرشد لتكوينه منه ومن الأسرة .

إن المرشد يحتاج إلى أن ينظر إلى النسق الأسرى فى ضوء خواصه وصفاته (المرونة ، الانفتاح ، الانغلاق ، ميكانزمات التغذية المرتدة والضبط والمعلومات ، وغيرها من خصائص الأنساق التى أشرنا إليها فى الفصل الثانى) ، وأن يصل إلى فكرة دقيقة عن النمط الأسرى الحالى الذى أمامه ، وهل هو نمط متدمج enmeshed أو أنه غير منتظمDisorganised وذلك ليحدد نوع الاتزان الذى يحقق به هذا النسق ، وهل هناك فرد فى الأسرة يعتمد عليه هذا التوازن ؟ أى كمنظم وحافظ للتوازن ، مثل ذلك العضو الذى حددته الأسرة كمريض ؟ (عن طريق قيامه بدور كبش الفداء مثلاً ؟) أم أن هناك فردا آخر فى الأسرة يقوم بهذا الدور ؟ أم أن هذا الدور لم يجد بعد من يقوم به ، ولذا لجأت الأسرة إلى الإرشاد النفسى ليقوم المرشد نفسه بهذا الدور ؟

وينبغى أن ينتبه المرشد ليس إلى ما يقوله أفراد الأسرة فقط ، ولكن إلى إشاراتهم وإيماءاتهم وتعبيرات وجوههم وحركاتهم الجسمية وأوضاع جلوسهم وغيرها من علامات اللغة غير اللفظية Non- Verbal . فهذه العلامات تقول الكثير مما يمكن أن يفيد المرشد فى فهم الأسرة لتفاعلاتها . وقد تفيد كثيراً التعبيرات غير اللفظية من أفراد الأسرة الصغار ، أى من الأطفال . لأنه إذا كان الكبار يخضعون سلوكهم اللفظى - وإلى حدما - غير اللفظى لنظامهم الشعورى فإن الأطفال لا يستطيعون أن يقوموا بعملية الضبط هذه . ويمكن للمرشد أن يلاحظ سلوك الأطفال التلقائى فهو يعبر عن حاجاتهم ومشاعرهم وميولهم . وقد تتصادم المعطيات التى تفهم من سلوك الأطفال التلقائى

ونشاطهم الحر وما يقوله الكبار خاصة الوالدين . وبعض المرشدين يوفرون للأطفال الفرصة لكى يمارسوا بعض الأنشطة كاللعب (فى صناديق الرمل Sandboxes وغيرها والرسم Painting وتشكيل الشاقة من طريق الكعبات Blocks والتمثيل(drama) لأن الأطفال فى بعض الحالات كانوا يعبرون عن معانى الخوف والوحدة والإهمال فى الوقت الذى يتحدث فيه الوالدان عن الأمن والسعادة والحب والرعاية التى تظلل أسرتهما .

فمشاعر الخوف والحاجات غير المشبعة ومشاعر القلق عند الأطفال لا يتم التعبير عنها بطريقة واضحة أو صريحة أى بطريقة لفظية ، وذلك بحكم العجز اللغوى عند الأطفال وبحكم الأفكار والاتجاهات التى يكون الآباء قد غرسوها فى نفوس أبنائهم مهما كانت مجافية للواقع . ولحكى « سو والروند - سكنر » أنهما أثناء العمل مع أم تعيش مع طفلتها البالغة من العمر ٨ سنوات والمنفصلة عن والد الطفلة ، وكانت تزعم للمرشدة أن البنت لا تذكر والدها ولا تهتم به ، « لأن كل حاجاتها مشبعة » ، وسمحت المرشدة للبنت أن تلعب ببعض الدمى فكونت منها أسرة تتكون من أمهات وأطفال صغار فقط ، وعندما أخذت المرشدة بعض الدمى التى تمثل الأب ووضعها مع الأسرة التى كونتها الطفلة ، صرخت هذه الأخيرة قائلة « لا .. لا .. لو عاد أبى فسوف يأخذنى من هناك » (Walrond - Skinner , 1981 , 40) . ولذا فإن على المرشد أن يكون منتبها إلى التعارض الذى يوجد بين الاتصال اللفظى وبين المعطيات غير اللفظية والسلوك الفعلى غير اللفظى .

وعلى المرشد أن يترجم الأنشطة غير اللفظية لأفراد النسق الأسرى كلهم صغارا وكبارا ، والتى تبدو عشوائية لا معنى لها ولا دلالة ، إلى أنماط مفهومة تعكس علاقات أفراد النسق الأسرى ومشاعرهم ومخاوفهم وتحالفاتهم ومواطن القوة ومواطن الضعف لديهم. وعلى المرشد أيضا أن يستجمع فى ذهنه كل ما عرفه عن ديناميات النسق الأسرى الذى يتعامل معه ، وأن يحاول أن يقترب من مشكلة الأسرة وبالتعاون مع أفرادها ، ولا نريد أن نكرر مرة أخرى المقاومات الشعورية واللاشعورية التى سيبديها أفراد الأسرة لتشخيص المشكلة عندما يكتشفوا أن المرشد لم يخضع لهم ولم يقتنع بوجهة نظرهم فى حصر المشكلة فى العضو الذى حددوه كمريض ، وعليه أن يستمر فى العمل مع الأسرة « وأن يسبح ضد تيارها » محاولاً تحديد المشكلة بالاستعانة ببعض الأسئلة منها :

- كيف يرى كل فرد من أفراد الأسرة المشكلة ؟

- لماذا تعتبر الأسرة السلوك الاعراضي أو العرض مشكلة ؟ وهل هناك أحد من أفراد الأسرة لا يعتبر هذا العرض (السلوك الاعراضي) مشكلة ؟

- من أكثر أفراد الأسرة انزعاجاً من المشكلة ؟

- كم عدد مرات حدوث العرض ؟ ومتى يحدث ؟ وأين يحدث ؟ ومن الذي يستجيب له أولاً ؟ وبأي طريقة ؟ وما الذي يحدث قبل حدوث العرض مباشرة ؟ وما الذي يحدث بعده ؟

- متى بدأ العرض ؟ ولماذا أتت الأسرة في هذا الوقت إلى الإرشاد أو العلاج؟

- ما جوانب المشكلة التي لا يراها أفراد الأسرة ويراها المرشد ؟

- من هو المتضرر في الأسرة الذي يحدد المشكلة لهم ؟ ومن الذي يتحدث عن المشكلة في الجلسات الإرشادية ؟

- ما مدى اتفاق أفراد الأسرة على تحديد المشكلة ؟ وإذا لم يكونوا متفقين فماذا يحدث ؟

- هل طلب أفراد الأسرة المساعدة من قبل ؟ ومن ؟ وكيف كانت استجابتهم لذلك؟

- هل تم طلب المساعدة من أفراد الأسرة الممتدة ؟ أو الاقارب ؟ أو الأصدقاء؟

- هل عرضت على الأسرة بعض الحلول ؟ وما هي ؟ وما موقف الأسرة من كل منها ؟

- مَنْ مِنْ أفراد الأسرة الذي يأخذ زمام المبادرة في المواقف الجديدة في الأسرة ؟

د - مرحلة التفاعل :

وعادة ما لا تتضح المشكلة تمام الوضوح في هذه المرحلة المبكرة من العملية الإرشادية لان المقاومات عند بعض أفراد النسق لازالت عاملة وفاعلة ، وسواء اتفق أفراد الأسرة على تحديد طبيعة المشكلة أم لم يتفقوا ، فإن الوقت قد حان في هذه المرحلة أن يدخل المرشد إلى مرحلة التفاعل Interaction Stage . وفي خلال المرحلتين السابقتين (مرحلة الالتحاق Joining Stage ومرحلة تحديد المشكلة Problem State-ment Stage كان المرشد يحافظ أو يبقى على مركزيته وتركيزه على الشبكة الاتصالية ،

ويتكلم مع كل أفراد الأسرة بالتناوب، ويمنع التقاطعات ، وتميل هذه الإجراءات إلى تخفيض التوتر في الأسرة من ناحية وتوافر النظام والاتصال الواضح نسبيا من ناحية أخرى ، وتقيم من المرشد قوة وتعمده قائدا للعملية الإرشادية من ناحية ثالثة . وإذا كان هدف المرحلة السابقة هو تمكين الأسرة من أن ترى مشكلتها على النحو الصحيح ، فإن هدف هذه المرحلة (التفاعل) هو توضيح أنماط التفاعل التي أبقت على المشكلة . والمدخل الذهبي للوصول إلى هذا الهدف - كما يرى معظم مرشدي ومعالجي الأسرة- هو أن يطلب المرشد من أفراد الأسرة أن يعبر كل منهم تعبيرا غير مقيد عن نفسه ، وأن يتفاعلوا بحرية وتلقائية في وجود المرشد أو بتعبير « منرشن » أن « يرقصوا» في حضوره (Minuchin 1974) .

وهذا الاستعراض أو « الرقص » يمكن أن يحدث على نحو سهل وطبيعي إذا كان أفراد الأسرة غير متفقين على طبيعة المشكلة التي تواجهها الأسرة . وعندما يكون هذا صحيحا ويتأكد منه المرشد ، فإنه يشجع أفراد الأسرة على أن يناقشوا اختلافاتهم ، وأن يحاولوا أن يصلوا إلى اتفاق . وخلال هذه المرحلة يكون من المفيد للتفاعلات في المقابلة أن يتنازل المرشد عن مركز الشبكة الاتصالية ، حيث كان يقوم بدور المنسق لكل الاتصالات . وعليه في هذه الحال أن يحول كل الاتصالات التي توجه له من أعضاء الأسرة مرة أخرى إلى أفراد الأسرة الآخرين . والمرشد لا يترك الأمور تتفاعل بعيدا عنه ولكن دوره فقط في هذه المرحلة يكون أنسب عندما يمارس في حدود التوجيه والتدخل حين الحاجة ، مثل أن يتناقش اثنان من أعضاء الأسرة ويصلا إلى طريق مسدود فعليه أن ييسر هذا الاتصال وأن يساعدهما على استمرار الحوار ، فمهمته في هذه المرحلة - مرحلة التفاعل - أن يكون ميسرا Facilator لهذا التفاعل .

أما إذا اتفق أعضاء الأسرة حول طبيعة المشكلة التي أحضرتهم إلى الإرشاد أو العلاج النفسي فإن المرشد يطلب منهم أن يمثلوا الموقف المؤدي إلى المشكلة ، مثل الموقف الذي يرفض فيه الابن (س) الامتثال لأوامر الأم أو الأب ، ماذا يحدث ؟ وما موقف كل فرد في الأسرة من ذلك ؟ ويرى مرشدو الأسرة : أنه من المفيد أن تجعل الأسرة تؤدي أو تفعل شيئاً عمليًا خاصا بالمشكلة بدلا من الحديث عنها فقط ، ومن الضروري أن يفعل المرشد كل ما في وسعه ليساعد الأسرة على أن تبني نماذج من السلوك صحيحة وسليمة في الخيال توطئة لمحاولة جعل هذا الخيال يحدث في الواقع .

وبناء هذه النماذج من السلوك خطوة هامة ومفيدة . ولكن المشكلة في بعض

١٢٥/٠٠

الأسر أن أعضاء الأسرة ليسوا تواصليين ، فالحدود بين الأنساق الفرعية سميكة وصلبة، ويكون المرشد في هذه الحال غير قادر على أن يتلقى معلومات كافية لبناء سلوك تفاعلي سليم وصحيح . وبعض المرشدين لديهم نماذج من مواقف تفاعلية سوية معدة مسبقاً وتناسب مواقف أسرية شائعة ، يمكن أن يدرب عليها الأسرة المغلقة . ومن الممارسات التي يتحمس لها بعض المرشدين الأسريين ، خاصة عندما يعملون مع أسرة بها أطفال صغار ، أن يسألوا الأسرة أن تنقد عن طريق التمثيل في الجلسة يوماً من حياة الأسرة بكل تفاعلاتها . وإذا نجح هذا الأسلوب فإنه يتلي فرصة أمام المرشد ليرى بعينه كيف تتفاعل الأسرة ، ويستطيع حينئذ أن يصحح ما يراه مؤدياً إلى المشكلات وأن يبرر هذا التصحيح للأسرة جيداً وأن يدربهم على السلوك الصحيح وحتى يروا نتائج التفاعل الجديد ويقتنعوا به مما ييسر التمسك بما تعلموه من أنماط جديدة .

إن من أهداف المرحلة التفاعلية أيضاً هو وقوف المرشد على هرمية الأسرة والكشف عن أي تحالفات ثابتة ، والمعرفة طبيعة الحدود بين الأنساق الفرعية هل هي متميعة أو صلبة وجامدة ، وما مدى تفاذيتها . ويأمل المرشد في هذه المرحلة أيضاً أن يكتشف عن النتائج التفاعلي المتكرر طوال فترة معينة ، والذي يبقى على سلوك المشكلة، وعندما يحصل المرشد على هذه المعلومات فإنه يكون في وضع يسمح له باستعمال التدخلات التي تؤدي إلى تغيير مفيد .

ولكي يحقق المرشد أهداف هذه المرحلة فإنه يضع القواعد الأساسية للعمل الإرشادي وأن يشرحها لأعضاء الأسرة جيداً ، لأنهم سيتعاملون على أساسها . وفي مقدمتها أن الأسرة جاءت إلى الإرشاد أو العلاج النفسي لأنها « هي » تحتاج إلى ذلك، وأن المرشد لم يحضر الأسرة ليقوم بذلك العمل الناجح والتقليدي وهو علاج الفرد في وجود أسرته ، وإنما هو يتعامل مع أسرة تحتاج الإرشاد أو العلاج بما فيها العضو الذي قبل الأسرة إلى اعتباره المريض .

ومن قواعد عملية التفاعل أيضاً أن يتجنب العمل من وراء ظهر بعض أعضاء الأسرة انسياقاً أو استدراجاً من جانب البعض الآخر ، فكثيراً ما يحدث أن يتصل أحد أعضاء الأسرة بالمرشد تليفونياً أو في نهاية الجلسة بعد أن تنتهي ليسر إليه ببعض المعلومات عن الأعضاء الآخرين على أساس أنه لا يستطيع أن يقول ذلك أمام بقية الأعضاء . والقاعدة التي ينبغي أن يرسيها المرشد هنا هي أنه يأمل أن يصبح كل فرد ، بما في ذلك المرشد نفسه ، قادراً على قول ما يرغب فيه أمام الآخرين في الجلسة ، على

الناس أن كل ما يدار فيه يعتبر أعضاء الأسرة الآخرين ملك للأسرة . وأن المرشد غير مستعد لأن يدخل في لعبة إخفاء المعلومات عن البعض أو يشارك في الاختلافات التي قد تكون قائمة في الأسرة . بل أنه من الخير ومن الأفضل للمسترشد وأعضاء العائلة أن يظل المرشد في بعض المواقف في الظل ، وليس من الضروري أن يبدو أنه على علم بكل تفاصيل حياة أعضاء الأسرة، وأنه ليس مسجلاً للأسرار الشخصية لأعضاء الأسرة . والعمل لا ينبغي أن يسعى إلى معرفة معلومات أن يستفيد منها ، لأنها يملك ستعرقل حرية وانطلاقية حركته مع أعضاء الأسرة في الجلسة .

ومن قواعد عملية التفاعل أيضاً : أن يحاول المرشد ترسيخ جو من الانفتاح Openness والألفة Intimacy . والفضل طريقة لتكن المرشد من ذلك هي : أن يحاول بقدر الإمكان تقديم نموذج لهذا الجو ، وذلك من خلال أن يجعلهم يشاركونه في مشاعره الخاصة أيًا كانت هذه المشاعر التي يشعر بها أثناء جلوسه معهم ، وأن يتصرف معهم ببساطة وأن يتحدث بعفوية وتلقائية . ولا ينبغي أن يمنع الالتزام بآداب المهنة ، وقواعد المبادئ الفنية والأخلاقية من أن يملك المرشد بهذه العفوية حتى يتكيف إلى داخل النسق الأسري ويصبح واحداً من مفرداته . والمرشد الكفء هو المهارات العالية يستطيع أن يحقق هذا التوازن بين الطلاقة في السلوك والالتزام بمعايير المهنة وأصول مزاولتها .

ومن قواعد العمل في المرحلة التفاعلية أيضاً : أن يقوم المرشد بتأسيس وترسيخ علاقات لها معانيها ودلالتها - وليست علاقات جوفاء مصطنعة - مع كل فرد من أفراد الأسرة وبطريقة ملائمة ومناسبة لسنه وجنسه . ويجب أن يشعر كل فرد في الجماعة باهتمام المرشد به شخصياً ، حتى يستطيع أن يشعر بعد ذلك ولو بطريقة ما بأنه يمكن أن يستفيد شخصياً بشيء ما من العملية الإرشادية ، وحتى يكون هذا الشعور دافعاً له لمداومة حضور الجلسات وتفاعله فيها . وكما قلنا من قبل فإن الجلسات الأولى يحاول فيها المرشد أن يحقق هدف الاندماج مع النسق الأسري أو اختراقه وتكوين نسق جديد يشمله مع الأسرة . وعليه أن يبذل الكثير من الجهد وأن يظهر الكثير من المهارة حتى يتمكن من إقامة هذا الاندماج ، لأنه بوجب هذا التكوين الجديد يستطيع المرشد أن يصل إلى التفاعل فعال وعادل مع الأسرة ، وهو الذي سيسمح له بإحداث التغيير المطلوب .

إذا الأسرة - كما قلنا - تفاعلاً مع المرشد بتقديم كبش فدائها ، وهو العضو الذي حددته كمريض . وعند بداية العمل الإرشادي يوجد قدر كبير من التباين في وجهات النظر بين المرشد والأسرة فيما يتعلق بالأسباب التي أدت إلى وجود المشكلات

الأسرية وفيما يتعلق - بالتالى - بأساليب مواجهة هذه المشكلات . فالأسرة تشعر أن مشكلاتها تنتهى إذا ما استبعد العضو المريض منها أو تغير هو بمفرده . بطريقة سحرية، أما المرشد فإنه ينظر إلى الأعراض المرضية عند العضو المريض بوصفها دعوة لتوجيه الاهتمام نحو مناطق أساسية للاختلال الوظيفى فى العلاقات الأسرية الداخلية ، ويكون اهتمامه مركزاً على سياسات الأسرة وأساليب تفاعلها وليس على الأعراض المرضية الموجودة لدى المريض .

وعند هذه النقطة يحدث التعارض الحاد بين النسقين : المرشد والأسرة ، حتى وإن اندمجا فى نسق واحد فإن التعارض سيحدث بين النسقين الفرعيين فى داخل النسق الأكبر . ويجد المرشد نفسه أمام خيارين خاطئين : الأول أن يساير الأسرة - خاصة إذا كان قد اندمج معها ، وبذلك يفقد هو والأسرة أية نتائج إيجابية للعملية الإرشادية وتكون العملية قد انتهت . والخيار الثانى : أن يصر على تغيير النسق الأسرى فى هذا الوقت المبكر من الإرشاد ، وبذلك قد تهرب الأسرة ولا تعود للمقابلات مرة أخرى، وتكون العملية الإرشادية قد انتهت أيضاً . وعليه أن يسلك الطريق الوسط بين هذين الخيارين فلا يساير الأسرة ولا يصدمها بشدة فى وقت مبكر لم يكتمل فيه وعيها.

ولكن عدم مسايرة الأسرة لا يعنى تجاهل بعض المشكلات السلوكية القائمة والملحة لأحد أفراد الأسرة ، فإذا كان أحد الأبناء متورطاً فى مشكلة سلوكية كالسرقة أو غيرها فإن المرشد لا يستطيع أن يتجاهل هذا السلوك الجانح لأحد أفراد الأسرة الذى يؤثر على النسق الأسرى كله وعلى مكانته فى البيئة ، ولابد فى هذه الحال من مساعدة خاصة للأسرة لمواجهة المشكلة . وهذا بالطبع لا يتعارض مع خطة الإرشاد التى يرسمها المرشد لتوجه عمله ، وعلى المرشد أن يدمج موضوع السرقة عند أحد الأبناء بتفاعلات الأسرة العامة ، فأغلب الظن أنهما ليستا مسألتين منفصلتين بل أن السرقة أحد أعراض " مرض الأسرة " وبالتالى فالذنب لا يقع على الابن وحده ، والأسرة ليست بريئة تماما من هذا السلوك ، وهذه المواجهة مع الأسرة مطلوبة دائما حتى لا يتعزز لديها ميكانزم اتخاذ كبش فداء .

ومن المتوقع أن موقف المرشد من الأسرة ومن العضو المحدد كمريض - والمستخدم ككبش فداء عادة - من شأنه أن يرفع معنويات هذا العضو ويشعره بالارتياح والثقة ويزيل عنه الكثير من مشاعر الدونية والضعة التى يعانيها من جراء معاملة الأسرة. وعندما يستمر المعالج فى دعم هذا العضو وتشجيعه بالانتباه إليه والتعليقات المهذبة

اللطيفة معه والجلوس بجانبه فى الجلسة من شأنه أن يغير مناخ ونظام العلاقات وأسلوب التعامل ومراكز القوى فى الأسرة ، أى أن النسق الأسرى يبدأ فى الاهتزاز ، ولا يعود هو ذلك النسق الذى أفرز انحراف أحد الأبناء . ولكن ينبغى أن يكون المرشد حذرًا من المبالغة ، وأن يكون واعيا بدرجة كافية ، لأن العضو - كبش الفداء - قد يستمرأ هذا الوضع ويستمر فى لعب دور كبش الفداء برغبته هذه المرة ما دام يحقق له مكانة ومكاسب فى الأسرة ، وبالتالى لا يبذل الجهد الكافى لمحاولة تغيير سلوكه .

وكنا قد أشرنا من قبل إلى نوع من الصفقة أو التحالف الذى يتم على نحو غير مكتوب بين المرشد والعضو المحدد كمريض أو كبش فداء الأسرة ، وهو تحالف فى صالح العملية الإرشادية ؛ فالنسق الأسرى الآن بدأ يتعرض للتغير . فالعضو المحدد كمريض والذى كان له مكانة دنيا فى نسق القوة داخل الأسرة ارتفعت مكانته وشعر بالقوة والثقة بفضل معاملة المرشد ، والمفهوم الجديد لمشكلة الأسرة بأنها ليست ناتجة من سلوك هذا العضو بقدر ما هى نتيجة تفاعلات الأسرة الخاطئة ، وأن هذا العضو ضحية الأسرة بأكثر من أن تكون الأسرة ضحيته .

وتكون هذه هى فرصة المرشد ليغير فى توازن النسق ويجعله يختل مستعدة لبناء النسق من جديد على أسس تفاعلية سوية . ومضمون الصفقة بين المرشد وعضو الأسرة، هى أن هذا العضو هو منفذ المرشد للولوج إلى داخل النسق الأسرى ، وليصبح كما قلنا أحد مفرداته فى مقابل هذه المكانة التى أتاحها له المرشد . وكما قلنا فإن على المرشد أن يكون منتبهًا حتى لا يستغل عضو الأسرة هذه المكانة استغلالاً سيئًا ، وأن يتمادى فى الحصول على المكاسب ، بل ينبغى أن يعرف أن عليه واجبات ومسئوليات مثل باقى أعضاء الأسرة ، وأنه لن ينقلب من عضو منبوذ إلى عضو مميز أو مدلل مع ملاحظة أن عضو الأسرة الذى استفاد حتى الآن من العملية الإرشادية عرضة للتفكير فى ألا يستمر فى الإرشاد - مثله مثل الآخرين - عندما يكتشف أن خطة الإرشاد تطوله أيضًا وتفرض عليه تغيرات ربما لم يكن يريدها .

هـ - مرحلة إقرار الهدف :

وبعد مرحلة الاتصالات الأولية وإجراءات إقامة أول مقابلة . وبعد إجراء المقابلة الأولى ، وهى المقابلة التى يلتحق من خلالها المرشد بالنسق الأسرى ليكونا معًا نسقًا جديدًا . وبعد بداية العمل الفعلى ممثلاً فى محاولة تحديد المشكلة وبداية التفاعل الحقيقى الذى يهدف إلى تغيير المعتقدات والأفكار التى يقوم عليها توازن النسق

الأسرى، وبالتالى تغيير النسق وإقامته على أساس تفاعلات جديدة وتوازن يعتمد على علاقات سوية . عند هذه المرحلة - ونحن مازلنا فى بدايات العملية الإرشادية - على المرشد - وخاصة عندما يصبح جزءاً من النسق - أن يعقد اتفاقاً مع أعضاء الأسرة حول كيفية مواجهة المشكلة وحلها بعد تحديد معالمها ، وهذا الاتفاق قد يكون مكتوباً وقد يكون شفوياً غير مكتوب . المهم أن طرفى الاتفاق المرشد من ناحية وأفراد الأسرة من ناحية أخرى يكون كل منهما على بينة بتفاصيل هذا الاتفاق وأهدافه ومراحله ووسائل تنفيذه وواجبات كل طرف وحقوقه عند الطرف الآخر ، ومصيانة الاتفاق تعتمد على طبيعة المشكلة وعلى أعضاء الأسرة وبنائها ، « وإذا أردنا نتائج جيدة فإننا لابد وأن نبدأ بداية جيدة » كما يقول « هيلى » (Haley , 1987 , 8) .

ويصوغ المرشد الاتفاق حسب طبيعة المشكلة وبناء الأسرة وعلى النحو الذى يكفل زلزلة التوازن القائم وإحلال توازن جديد أكثر سواء مكانه . وترى « سو والروند-سكنر » أنه من الأمور المفيدة عقد اتفاقية مع الأسرة عند الوصول إلى نهاية الجلسة الثانية؛ لأن هذه الاتفاقية سوف تقوم بوضع الحدود حول استمرار العلاقة بين المعالج والأسرة . وهذه الاتفاقية ليست مجرد وضع المسئوليات الخاصة بالأدوار والمهام المطلوبة لتحقيق الغايات المطلوبة الرغوبة ، ولكنها تعد أيضا ضماناً لاستبقاء ومساندة وتثبيت نسق التغير العلاجى (Walorad - Skinner , 1981 ,43) .

ويرى المرشدون أن الاتفاقية ينبغى أن تغطى أهداف العلاج . وتتحدى الأهداف بناء على إمكانيات وقدرات النسق الأسرى . وتتضمن الاتفاقية أيضا مسئوليات أفراد الأسرة ومسئوليات المرشد وتحديد من سيتابعون حضور الجلسات ، وكما قلنا ربما يكون من الحيوى ضرورة حضور الأجداد أو الأعمام أو الأخوال ما دامت شخصيات مؤثرة فى بعض أفراد الأسرة وتفاعلاتهم . وهذا يعنى أن المرشد قد يركز فى بعض مراحل العمل على التفاعل مع الشخص المحدد كمريض ، ثم يتحول عنه إلى الوالدين وطبيعة علاقاتهما، وقد يتحول من هذين إلى الجد أو الجدة وهكذا ، كما تشمل الاتفاقية بالطبع مكان وموعد الجلسات وجدول عقدها أسبوعيا أو شهريا .

ويلاحظ أنه رغم الاتفاق على مكان معين لعقد الجلسات فهذا لا يمنع من أن تعقد بعض الجلسات فى مكان آخر كمنزل الأسرة إذا رأى المرشد أهمية لذلك . وقد يتضمن الاتفاق التسجيل الصوتى أو المرئى للجلسات . وحينما يرى المرشد قد تكون الجلسات مكثفة فى فترة معينة من العمل كأن يكون جلستين فى الأسبوع ثم جلسة واحدة أسبوعيا بعد ذلك . هكذا يتضمن التعاقد مثل هذه الأمور حتى تكون الأسرة

على بينة من ذلك وان ترتب أمورها على هذا الأساس . ولكن يلاحظ أن المرونة واردة لمقابلة أية تغييرات أو ظروف طارئة . فوضع جدول للجلسات لا يعني أنه لا يتغير ، ولكن وضع الجدول من البداية ضروري لإنجاز العمل على نحو طيب .

ومن أهم مهارات المرشد النفسي الأسري : قدرته على صياغة المشكلة على النحو الذي يساعد في حلها ، فكثير من المشكلات يصعب إن لم يكن من المستحيل حلها ليس لأنها صعبة الحل بالفعل ولكن لأن المشكلة موضوعة في أذهان أصحابها على نحو لا ييسر الحل سواء من حيث ترتيب عناصرها ، أو من حيث إدراك العلاقات بين العناصر ، أو من حيث غياب بعض العناصر الهامة أو من حيث اختلاط عناصر المشكلة بالجوانب الانفعالية التي تعمل على التهويل من بعض العناصر أو التهوين من قدرها . وفي كل الحالات تكون صورة المشكلة بالهالة التي تحيطها تختلف كثيراً عن المشكلة بعناصرها الواقعية التي يراها الطرف المحايد ، وهذا ما يحاول المرشد أن يقوم به عندما يبدد الهالة من حول المشكلة ويضع كل عنصر من عناصرها في حجمه الطبيعي وفي علاقته بالعناصر الأخرى مع التأكد من عدم غياب أي عنصر له علاقة بالمشكلة .

وأول المداخل لفهم الأسرة لمشكلتها على الوجه الصحيح هي أن يعرف أفرادها أن طبيعة العلاقات بينهم وتفاعلهم غير السوي هو الذي أفرز المشكلة وهو الذي نمّى الأعراض ليتكامل التفاعل وأن على النحو الخاطئ ، أي أن التفاعل الخاطئ هو الذي جعل من ظهور الأعراض أمراً ضرورياً ، لأنها تؤدي وظيفة الإبقاء على شكل التفاعلات (الخاطئ) والذي يشبع الحاجات (غير السوية) عند أفراد الأسرة وخاصة الوالدين . ومن هنا يحتاج النسق لهذه الأعراض لأنها هي التي تحافظ على تحقيق حاجات ذوي النفوذ فيه .

واختفاء الأعراض وحدثه دون تغيير في العلاقات والتفاعلات من شأنه أن يزعج بعض أفراد النسق وخاصة الوالدين ، أو قد يختفي العرض ليظهر مكانه عرض آخر يقوم بنفس الوظيفة إذا فشل العرض الأول ، أو لم يعد يقوم بالوظيفة كما ينبغي . ومما تفعله العملية الإرشادية هي تعديل التفاعلات ونظرة كل فرد إلى الآخر وتصحيح المواقف التي من شأنها أن تصحح العلاقات ، وبالتالي لا يعود للعرض قيمة أو وظيفة فيختفي من تلقاء نفسه في بعض الحالات ، أو بجهد تدريبي بسيط في الحالات الأخرى .

وعلى ذلك فإنه أمام أي مشكلة يكون على المرشد أن يعيد تأطير reframe المشكلة، أي النظر إليها من زاوية أخرى أو في صياغة أخرى أي في إطار جديد . وهذا

التأطير الجديد هو الذى يسمح بالرؤية الجديدة وبالتالى لحل المشكلة ، وعلى المرشد بالطبع أن يقنع الأسرة بهذا التأطير الجديد لمشكلتها. وعملية إعادة التأطير Reframing ليست سهلة ، بل إنها تمثل تحدياً كبيراً أمام المرشد أو المعالج ، ويتوقف على نجاحها إلى حد كبير نجاح العملية الإرشادية أو العلاجية ، ولذا تحتاج إلى كل لباقة المرشد وتدريبه وذكائه وقدراته الاجتماعية والإكلينيكية .

والمثال الذى يمكن أن يعطى لمثل هذه العملية ما فعله « هيلى » من إعادة تأطير حالة فصام Schizophrenia كحالة فصام كاذبة Pseudo - Schizophrenia (Haley,1967) . ومن ثم استمر فى مساعدة الأسرة ، وخصوصاً الفرد الذى حدد كمريض . وينبغى أن يستشير المرشد أفراد الأسرة فى تقويم سلوك الأفراد الآخرين خاصة الفرد المحدد كمريض ، ففى حالة الفصام الكاذبة يمكن الاستفادة من مراقبة أفراد الأسرة لهذا العضو وأن يسجلوا ملاحظاتهم على مقياس يزودهم به المرشد له خط أساسى أو قاعدى يمثل السلوك السوى .

ويمكن للمرشد أن يستشير بعض أعضاء الأسرة بمنهم لمساعدة الشخص المحدد كمريض ، لأنه ربما يكون هناك علاقة بين هذا العضو بالذات وأعراض من حدوه كمريض ، مثل البنت المتمردة على الأسرة ، والأم خصوصاً ، وعلاقة ذلك بالتشجيع الخفى وربما اللاشعورى لها ، ودفع الأم كذلك لبعض أبنائها لكثير من السلوك الذى يدخل تحت باب الأعراض .

وقد يترك المرشد الأسرة للحظات تتفاعل معاً غير حضوره بعد أن يلقى عليهم سؤالاً مثلاً ، أو يعرض عليهم التفكير فى مسألة ما ، أو أن يطلب آراءهم بعد فترة من التدبير . وقد يلاحظ تفاعلهم من خلال شاشة ذات اتجاه واحد One - way Screen . وفى كثير من الأحيان يحتاج المرشد إلى ملاحظ آخر بجانبه ليرصد بداية التغيرات فى مواقف الأسرة وعلاقاتها بعد أن تكون مرحلة التفاعل قد قطعت شوطاً . وهذا الملاحظ الخارجى قد تكون لملاحظته قيمة كبرى ، لأن المرشد يكون قد اندمج وأصبح جزءاً من النسق وبدأ يتحرك فى إطارهم وحسب إيقاعهم «ويرقص رقصتهم» كما يقول منوشين . ولذلك فإن «كارل ويتكر » Cral Whitaker يصر على ضرورة الاستعانة بملاحظ أو مساعد للمرشد حيث يكون هذا الملاحظ أقدر على رصد التغيرات التى بدأت تأخذ مجراها فى النسق الأسرى . ويمكن أن تناقش ملاحظات الملاحظ داخل الجلسة ، فى إطار تقدير دقة الفروض التى فرضت قبل الجلسة ولإعادة صياغتها فى ضوء البيانات الجديدة

التى جمعت أثناء الجلسة، فيما أسماه نوبل «مؤتمر داخل الجلسة» (Nobel , 1991, 338) In - Session Conference .

ويرتبط بؤتمر داخل الجلسة التكليفات المنزلية التى يطلب المرشد من أعضاء الأسرة القيام بها . وهى مطالب لا تخص الإرشاد والعلاج الأسرى وحده ولكن معظم المعالجين الآن يستخدمونها ، فإن عدد ساعات الجلسات العلاجية مهما كان لا يكفى لإحداث التغير المطلوب وبالدرجة المطلوبة ، ولذا فإن التكليفات المنزلية تصبح ضرورة ، لتدريب العميل على إتقان مهارة معينة ، وعلى ربطه بعملية الإرشاد والعلاج فيما بين الجلسات . ويحيد بعض المرشدين والمعالجين أن تسير الإجراءات الإرشادية مع الإجراءات التشخصية ، فليس من الضرورى الانتظار حتى ينتهى التشخيص بالكامل حتى تبدأ خطوات الإرشاد أو العلاج على الأقل فى بعض الحالات حيث تكون الخطوات الإرشادية مما يصب فى زيادة مقدرة الأفراد والأسرة على ضبط سلوكهم وعلى الالتزام بقواعد التعامل السوى . وعلى أى حال فإن المرشد أو المعالج ذو الخبرة الطويلة يمكنه أن يزاوج فى مرحلة من مراحل العمل بين الخطوات التشخصية والخطوات الإرشادية.

والجلسات الأولية خاصة مع أفراد الأسر كبيرة الحجم غالباً ما لا يمكن إنجازها فى حدود الساعة الإرشادية (خمسون دقيقة) . وإذا لم يمكن عمل جدول يتضمن جلسة أطول يكون البديل عندئذ أكثر من جلسة أسبوعيا لإقامة وتدعيم الصلة الإرشادية بين المرشد والأسرة . ومما لا شك فيه أن التكليفات المنزلية تعوض بعض الشيء قصور وقت الجلسة ، إضافة إلى زيادتها لقوة العلاج وفاعليته كما ذكرنا .

وتشير « سو والروند - سكتر » إلى فنية أو اتجاه أو مدخل وهو أن يستخدم المرشد أو المعالج نفسه The Therapist Use Of Himself كأداة لإحداث التغير المطلوب وعلى نحو أسرع وأكفأ ، وترى أن أسلوب استخدام المعالج لشخصيته الخاصة وسماته المميزة أثناء مسار العملية الإرشادية أو العلاجية أحد العلامات والسمات التى تميز بين معالج وآخر . ويستخدم المرشد ظاهرة الطرح أو التحويل ليس لمشاعر أفراد الأسرة على نفسه ، ولكن طرح أفراد الأسرة مشاعرهم بعضهم على بعض ليفهم طبيعة العلاقات بينهم ويصحح غير السوى فيها ، لأنه لا يقرب أفراد الأسرة كحالات فردية ولكنه يقرب الأسرة كلها كحالة فردية . وعندما يدخل المرشد إلى النسق الأسرى فإنه يدخل كإنسان كما يدخل كمحترف . وعليه أن يتحرك بين هذين الدورين حسب

متطلبات العملية الإرشادية . ويجد المرشد نفسه في بعض المواقف عنصراً فعالاً وفي البعض الآخر يتنحى ويترك لأفراد الأسرة أن يتفاعلوا بحريتهم بدون تدخل ، ويكتفي بدور المراقب والمحلل للتفاعل . ويستطيع أن يصف المرشد مشاعره بالضبط الإيجابي منها والسلبي لأفراد الأسرة كما يسمع منهم مشاعرهم حتى يدركوه كشراحد منهم وليس كسلطة فوقية قوية ، بل إنه يمكن أن يجعل من نفسه مقياساً لمشاعرهم . ويسأل أفراد الأسرة ، ما إذا كانوا قد شعروا بنفس شعوره إزاء مسألة ما ؟ ويعتمد هذا المدخل على أن المرشد يستخدم كل إمكانياته وقدراته في تحقيق هدف العملية الإرشادية (Walrond -Skinner,S. 1981,45-46).

وعلى المرشد أن ينهي الجلسة بتحديد موعد الجلسة التالية وتحديد من سيكون حاضراً من أفراد الأسرة ، ولا ينبغي - كما قلنا - أن يسأل المرشد الأسرة فيما إذا كانت ترغب في العودة واستمرار العلاج ، فهو أمر مفروغ منه ، إلا إذا ظهرت أمور أخرى تدل على غير ذلك .

وعندما يعمل المرشد في فريق ، أو عندما يكون له مساعد ، فإنه يعقد لقاء مع الفريق أو مع المساعد بعد الجلسة لتلخيص ما دار في الجلسة ولسماع وجهات النظر المختلفة حول الأسرة وتطور استجاباتها للتدخلات الإرشادية . وحتى عندما يعمل المرشد بمفرده فإنه يحتاج بعد كل جلسة أن يسجل بعض ملاحظاته وانطباعاته المستمرة عن الأسرة وتقدمها وجوانب القوة في الأسرة ، كما تظهر في العملية الإرشادية كذلك جوانب الضعف . كما يسجل التكليفات المنزلية التي ينبغي أن يصر عليها المرشد وأن يعتبرها محكاً ودليلاً على مدى التزام الأسرة بالعملية الإرشادية وجديتها واستعدادها لتحمل التغيير الذي ستأتي به .

* * *